نظرات في النفس والحياة

— ١٣ —

نظرات جونوثان سويفت

كان سويفت انجليزيًا ولد في ارلنده وعاش بها في صباه ثم عاد اليها في أواخر أيامه ومات بها وقد كان فقيراً فأكسبه الفقر غيظاً وشعوراً بالنقص كان يخفيه بالكبرياء عندما نبغ وعاشر العظماء والوزراء وقد عاش مدة في انجلترا أشبه بكاتب للسير وليام تمبل السياسي الانجليزي وقد استشهد تاكري في رسالته عنه برسائل سويفت التي تذلل فيها للسير وليام وأظهر أن ضرورة هذا التذلل كانت تحز في نفسه وقلبه وتزيد من شعوره بالنقص . ولكن ماكولي في رسالته عن السير وليام تمبل وصف كيف ان سويفت قد استفاد علماً من مكتبة متبوعه كما استفاد خبرة عملية من معاشرته رجلاً تقلب في مناصب مختلفة واكتسب خبرة بالحياة والناس . وقارن ماكولي بين الدكتور صموئيل جونسون الاديب الانجليزي والكاتب الشهير وبين سويفت فقال ان آراء الأول مكتسبة من الكتب أما آراء سويفت فهي مؤسسة على الخبرة بالحياة . وقد خدم سويفت وزراء حزب المحافظين أولاً بقلمه وكان يأمل ان ينصب أسقفاً في الكنيسة ولكن الملكة رفضت ذلك لانه في بعض كتبه يسخر برجال الدين وطوائف الكنيسة وينقد حزازاتهم واختلافهم في أمور تافهة . واشهر مؤلفات سويفت كتاب اسفار جاليفار يطالعه الصغار لغرابة قصته والكبار لما فيه من نقد لحياة الناس . وقد خولط في عقله في أواخر أيامه وقلما سلم منه صديق لحدة طبعه وبالرغم من تلك الحدة أحبته امرأتان وهما التي رمز للأولى باسم ستيلا وللثانية باسم فانيسا وقد قال تاكري ان انهيار عقله في آخر حياته كان مثل انهيار دولة كبيرة . ويقول سير والتر سكوت ان فانيسا ماتت غماً بسبب زواجه سراً من ستيلا ولو انه من المعروف ان فانيسا ماتت من السل وقال ناقد ان سخر فولتير كان مثل وخز سلاح الم

أما وخز سخر سويفت فكان أشبه بوقع فأس القاتل . وقد اتخذ من سخر عبقريته وشدته في القول وسلاطة لسانه سلاحاً في السياسة لم يسبق له مثيل فجعل المقالة السياسية مقالة أدبية مرهوبة لأنه أكسبها رائع الاسلوب كما أكسبها الخيال والأدب والتفكير والسخر والشدة. ولكن شدة سخره كما تظهر في المقالات السياسية كمقالات دربير التي يقترح فيها على سبيل السخر بخصومه من الوزراء طهي أطفال الارلنديين وأكلهم وينشّن في وصف طهيهم. كذلك تظهر شدة سخره في وصف ياهو المخلوق القذر في كتاب أسفار جاليفار وقد رمز به الى الانسان وفي مواضع أخرى كثيرة وقد قرن فولتير بين رابليه الساخر الفرنسي وبين سويفت فقال ان كليهما ذو بصيرة وفطنة ولكن رابليه كان يحب الحياة والناس. أما سويفت فكان يكره الحياة ويحتقر الناس .

وحب رابليه للحياة سواء أكان حبّاً للذات الجسم أم كان حبّاً للذات التفكير أمر مشهور تفيض به كتبه. وكان يحارب به الرهبنة في المسيحية ونظرها الى الحياة والفكر . ويمتاز سويفت. إذ انك لا تجد حرفاً أو كلمة يصح حذفها في قوله . أما رابليه فقد كان أسلوبه غزير المترادفات وأشباهها فكأنه في غزارته السيل المتدفق أو النبات الغزير . وكما ان كليهما قد يعوق السير فكذلك قد يعوق إتمام قراءة رابليه ما به من غزارة الكلام وكثرة الاشارات الى أمور غامضة كانت معروفة في ذلك العهد البعيد . إلاّ أن قراءة كتبه تحبب الحياة وتدعو الى الأمل والى الرغبة فيها . أما كتب سويفت فقد تدعو الى احتقار النفس البشرية واليأس من الناس . ولكن هذا لا يقلل من رصانة تفكيره كما يتضح في النظرات الآتية التي نوردها مع التعقيب عليها .

(١) قد يكثر الناس من الأعذار والأسباب حتى ينتحلوا الزائفة منها فيضيفونها الى الوجيهة ظنّاً منهم ان كثرتها تزيد الراجحة الوجيهة رجاحة ووجاهة. وقلما يفطنون الى ان زيف الزائفة ينتقص من رجاحة الراجحة، ويدعو الى الشك فيها، وهذا أمر شائع يضيع الناس به حججهم ويبطلون حقهم، وان كانوا على حق وكذلك الضعيفة من الحجج تضعف ما أضيفت اليه من الحجج القوية ويحسبون أن كثرتها تقنع المفكر فيها، ولكنه اذا فطن الى ضعف الضعيفة ربما خالجه الشك في غيرها . وقد يحسب الناس قوة الأخيرة من بلاغة

صاحبها أو مكره واحتياله فإذا وثق السامع من بطلان بعض الأسباب أو ضعفها أبى الاقتناع كل الاقتناع بالسلبية وتحرز من قبولها كل التحرز. وهذا مثل أن يتضح للسامع كذب بعض القول فيشك فيه كله أو يرفضه أو يحكم ببطلان الصدق لجناية الكذب الذي أضيف إليه.

(٢) مهما عظمت المنافع التي استفادها المرء منك فإنه قد يحقد عليك إذا كانت له شهوة ظلم أو حقد أو بغض لانسان ولم تُعِنْهُ على ظلم ذلك الانسان أو على إيذائه أو انتقامه ولم تساعده على التشفي منه ، فإنه يعدك عائقاً له وإن لم تكن عائقاً ويراك خاذلاً لنفسه كأنك خذلته في الخير والعدل . فإن الشهوات لا تنصف ولا تذكر خيراً استفاده منك صاحبها ولا تأبه لما يفرضه عليك العدل من الامتناع عن ظلم الناس وإيذائهم. فكأن ما أسديت إليه كان نفعاً زائفاً وأمراً مدلساً — ويدهش الناس لو فطنوا الى حدّ ينقادون إلى مثل هذا الاغراء بالشر والالحاح في الحث عليه وهم ينقادون إمّا خوفاً أو طمعاً أو كللاً أو استهواء أو شهوةً أو جهلاً أو ما شابه ذلك . وبعضهم يحسب الانقياد الى الشر ضرورة لا مناص منها مع هذا الالحاح وإن كرهها أو ادّعى لدى نفسه أنه يكرهها أو كان يهاب عاقبتها وربما ينقاد إليها وهو لا يسوّغها فيقنع نفسه بالباطل، إنه إنما انقاد الى ضرورة من ضرورات الحياة التي لا مناص منها وربما غالط نفسه وعدّ انقياده الى الالحاح على عمل الشر والأذى من ضرورات الحياة التي لا مخرج منها ولا مناص كي يطلق لنفسه العنان لاشباع نهمتها الغريزية في عمل الشر ولتسترسل فيما هو حبيب إليها منه . والانسان قلما يتجنى أو يعمل الشر بالحاح مغر أو بغير إغراء وإلحاح إلا وهو يعد لنفسه الأعذار كي يستريح إمّا من تأنيب الناس وإما من وخز الضمير .

(٣) أكثر الناس عندهم من الايمان والدين القدر الذي يغريهم بكره الناس لمخالفتهم إياهم في أمر من الامور وليس عندهم القدر الأعظم من الايمان الذي يغريهم بحب الناس — فترى الناس يضطهد بعضهم بعضاً وقد يكون هذا الاضطهاد خشية عدوى آرائهم وأعمالهم أو قد يدعون أنهم يضطهدونهم لانهم يحبون لهم الخير ويخشون عليهم الشر أو الأذى . وهذا يذكرنا بقصة (العذاب بالأمل) لمؤلفها فيليير دو ليل آدم الفرنسي وفيها أحد رجال

الكنيسة من أعوان عصبة التفتيش يعذب الناس وتكاد تذوب نفسه إشفاقاً عليهم ورحمة لهم إذ يعذبهم كي يتطهروا بالعذاب ولم يكتف بالعذاب المادي بل كان يعذب السجين بالأمل إذ يترك له باب سجنه غير مرصد كي يطمعه في الهرب فاذا أوشك الرجل أن يهرب وينجو من العذاب دلف إليه واعتنقه واحتضنه رحمة له وعاتبه برفق لرغبته في الهرب من التطهير بالعذاب والألم وقلبه يكاد يذوب إشفاقاً عليه من تلك النجاة وهذا يذكرني قول الشاعر

تبكّى كذبّاح العصافير جاهداً وعيناه من وجدٍ عليهنّ تهمل

وهذه القسوة الموصوفة في القصة قسوة ممزوجة بهستريا الرحمة ولكن أكثر النفوس في قسوتها في الحياة لا تحتاج الى مزيج من هستريا الرحمة الكاذبة .

(٤) كثيراً ما يخطىء ويخيب ذوو الفكر في أمور الحياة العامة حيث يصيب النجاح من قل حسه وفكره فإن شدة تصور ذوي الفكر وإدراكهم جوانب الأمور واحتمال ما يكون ، وحدة ذهنهم في بحث تفاصيل الأمر صفات قد تدعو الى الحيرة والارتباك والتراخي والى الشطط عن القصد في أثناء تلمسهم جوانب الفكر في الأمر بينما يمضي الرجل الذي لا يفكر كثيراً الى ما يكلف عمله فيعمله عملاً متقناً ويصل إليه من أسهل الطرق وأقربها وأكثرها وُرّاداً وإنما مثل ذلك مثل المدية اذا شحذت شحذاً شديداً وأردت أن تقطع بها أطراف أوراق كتاب فإنها ربما حادت وجنحت من حدتها فلا تقطع أوراق الكتاب قطعاً منتظماً بل قد تتلفها بينما لا تحيد المدية التي هي أقل منها شحذاً. ولعل سعة الفكر تدعو الى أن يعد صاحبه من الممكن عملياً ما هو من المحال ولقد رأينا نابليون بونابرت ينجح في تنظيم إدارة فرنسا وفي تنظيم معاركه بينما كان خياله وفكره يدعوانه أحياناً الى طلب المحال ، ولقد عرفت من الشبان الأذكياء من أصابوا نجاحاً كبيراً في الحياة وكان يتنازعهم العاملان عامل الارادة الواقعية العملية وعامل الخيال والفكر اللذين كانا يؤديان الى فشلهم لو استسلموا إليهما كل الاستسلام .

(٥) يلوم الناس الانسان لأنه لا يعرف حدود مقدرته ومقدار عجزه ونقصه ولكنهم قلما يعترفون انه قد يجهل قدرته وكفايته وملكات نفسه وقد يبخسها ويلتمس نصيب

نفسه منها لأنها تكون كامنة خافية عنه لا تظهرها إلاّ الحوادث المواتية المناسبة وربما اختفاؤها عنه كاختفاء منجم الذهب ومعدنه في بطن الأرض فانه يخفى عن من هم على سطح الأرض ومثل هذا الانسان الذي يخفى عنه مقدار ملكاته كمثل من يعيش على سطح نفسه كما يعيش الغافلون عن المعدن الذي في بطن الأرض ممن هم على سطحها — وقد يستنبط هذه الملكات الايحاء أو الحب أو المنافسة أو الضرورة، والضرورة التي تستنهض الحيلة والقدرة والملكة في بعض النفوس اذا صحبها ما يدعو الى الارتباك أو كان في جهاز جسم صاحبها ما يدعو الى الحيرة، أخلّ بملكاته ولم يتمتع بها كل الانتفاع كالذي لا تظهر كنوز نفسه إلاّ اذا ابتعد عن الضوضاء. فان ضوضاء الحياة قد تشردها كما يشرد لب المرء وتتبدد بعثرة أفكاره اذا سمع جلبة وأصواتاً صاخبة. ولكن بعض الناس لا تظهر كل مقدرته وملكاته وكنوز نفسه إلاّ اذا خاض غمار الحياة وعالج الناس وعاشرهم واحتكت نفسه بالنفوس كما يحتك حجر الصوان بالصوان. وقد يفاجأ المرء ببروز ملكاته وقدرته كما يفاجأ غيره مفاجأة وقد كان لا يظن ان عنده تلك القدرة كما كان الناس لا يرونها في نفسه ومفاجآت النفوس متنوعة.

(٦) دعانا بعض الفلاسفة الى نبذ أكثر رغباتنا حتى اذا بلغت أقل حد مستطاع أمكننا ان نحصل عليها من غير مشقة كبيرة ومن غير ان نشقى في الحياة. وهذه الدعوة مثل دعوة من هو في حاجة الى النعل ان يقطع رجليه فقد يستغني عن النعل فلا يشقى بطلبه ولكن ما تقدم إلاّ بالطلب كما لا يتقدم من هو في حاجة الى النعل إلاّ بقدميه. ومن عجب الزمن ما شحذ ذهن الانسان ووعى عقله ومرّن بدنه إلاّ لأنه خالف هذه الدعوة الى انتقاص الرغبات والحاجات واستنّ لنفسه سنّة الاقبال على طلب الدنيا.

(٧) لو ان انساناً كتب جميع آرائه في أمور الحياة المختلفة منذ صغره الى ان صار شيخاً لوجد اختلافاً وتناقضاً كبيراً في آرائه في كل أمر من الامور في مراحل العمر المختلفة ومع ذلك فان الناس كثيراً ما يلومون المرء لأنه غيّر وبدّل في آرائه وهم لا يفطنون الى أنهم يغيرون ثيابهم وأزياءهم ومطالبهم. ولو أن انساناً لم يتغير رأيه في الامور من عهد طفولته الى مماته لدلّ ذلك على ان عقله لم يكبر وأنه أشبه بالحفريات المتحجرة وان كانت

منه يصيبها التغير أيضاً — ولعل السبب في ذلك ان الناس يخلطون بين تغير النفاق الذي سببه الاهواء وتغير الرأي وهم يميلون الى سوء الظن فينسبون كل تغير الى النفاق الذي يجعل المرء شبيهاً بالآلة التي توضع في مهب الرياح فتعرف بها الجهة التي تهب منها . فتغير الرأي قد يكون تجديداً الى الصواب ونمواً في العقل وقد يكون طيشاً وعبثاً فيمن لا رأي له . وقد يكون مكراً واحتيالاً للكسب . وبالرغم من ان الناس يلومون من غيّر رأيه فانهم اذا وجدوا أرَباً أو نيلاً منه أو قدحاً فيه تناسوا رأيه الجديد وألزموه رأيه القديم وهو يتبرأ منه .

(٨) عرفت أناساً كانوا ذوي مواهب كبيرة نفعت غيرهم ولم تفدهم فهم كساعة الظل التي كان الناس يضعونها أمام بيوتهم فينتفع بها المارّة ويعرفون بها مرور الزمن ولا ينتفع بها أهل البيوت الذين نصبوها . وتلك المواهب النفيسة قد لا تنفع أهلها فحسب بل قد تضرهم فإن الفائدة المرجوّة للمرء في الحياة لا تكون على قدر مواهبه وإنما تكون على قدر ما يستطيع الاحتيال له من المكاسب والمزايا . فإذا لم تسعفها تلك المواهب على ذلك الاحتيال أخطأت تلك المزايا ولو أن نفوساً أخرى غير نفس ذلك الإنسان لم تنل ما تريد مما يعدل مواهبها ويناسبها ويوازنها ما بالت نفسه، وقلما تسخطت أو حاولت عبثاً أن تغير سنة الحياة إلا في حالتها .

(٩) رغبة بعض المفكرين في إبطال مطامع الناس التافهة ورغباتهم التي لا قيمة لها في ذاتها ، وإنما تكتسب قيمتها من تكالب الناس وتهالكهم عليها ، خطة تدل على نقص في الحكمة والخبرة بأمور الحياة إذ أن كثيراً من أمثال تلك المطامع اذا جعلت جزاء العامل ومكافأة للمجيد ، ترغبة في الكدح والعمل وفي ارتياد سبل الفضائل والفضل . أما أن يقال إن الفضائل ينبغي أن تطلب لمحبتها والرغبة فيها لا لجزاء عليها فنظرة حسنة ولكن شاع الناس في الحياة تخالفها وتطلب جزاء عليها ولا مناص مما تتطلبه الحياة، فالشهرة والرتب والأوسمة وما شابهها أمور لا قيمة لها في نفسها ولكن قيمتها فيما تؤدي إليه من العمل والجد . ولقد ترى الرجل الفقير الجاهل يكدح طول حياته ويتخلق بخصال الجد ما استطاع الى ذلك سبيلاً كي يقال رثاه حسناً اذا مات وكي يكتب بعضه على قبره — وهذا يذكرنا كلمة لنابليون

بونابرت في هذا المعنى وفي فائدة الرتب والأوسمة عند ما ليم على إحيائها بعد أن محتها الثورة الفرنسية . ولكن سويفت بالرغم من فطنته الى أنها وأمثالها مدعاة الى العمل ومن محركات الحياة فانه يسخر بالمتهالكين عليها في كتاب أسفار جاليفار . اذا اتخذوا الائتمار والكيد والتملق وسائل إليها وأمعنوا في عمل الشر بسببها .

(١٠) بالرغم من أنه لم يكن بين الناس من استطاع أن يجمل آراء الناس ذات طول وعرض ونظام ومقصد واحد فإن كل مفكر يود أن يحمل الناس على اعتناق آرائه أو يأمل كما أمل أبيقور أن يصير الناس يوماً الى زمن مقبل تتشابه فيه الآراء والأنظمة بعد أن يُشَذِّب بعضها بعضاً كما يشذِّب الحَصَا باحتكاكه ، فتتحول الحصوة الثقيلة والخفيفة والمستديرة والمستطيلة الى شكل واحد ووزن واحد أو كما أمل كارتيزيوس أن تجذب فلسفته الآراء الفلسفية المتناقضة إليها فتدور حولها كما تجذب الكواكب غيرها من الكواكب . ومن هذا السبب نشأ اضطهاد الفكر للفكر . فلو تقصينا التاريخ لوجدنا كل طائفة تدعو الى حرية الفكر ما دامت تضطهدها غيرها فاذا تخلصت من الاضطهاد وصارت لها السيطرة حاولت أن تقيد أفكار غيرها ومن أجل ذلك كانت محاولات تحرير الفكر مصحوبة بالرغبة في تقييده أو يعقبها اضطهاد من نوع آخر — وقد تتبع (فان لون) في كتابه (تحرير الانسانية) خطوات هذا الاضطهاد من عهد الكهوف الى عهد الجيلوتين . ولو كان الفكر غير باعث على العمل رغما استطاعت الفئة الغالبة إهماله . وما صنعه (فان لون) صنعه في صيغة أخرى برتران ده جوفنيل في كتاب (القوة) وقد قال جوفنيل إن كل من يستبد بالقوة إنما يفعل ذلك بدعوى أنه ينوب عن الشعب والواقع كما أوضح أن في استسلام الشعب ما قد يسوغ هذا القول وانما كان ينذر الشعوب من عواقب المستقبل . ومن الغريب أن جوفنيل وكان مندوب فرنسا في سوريا يقول في القوة قولاً قاله قبله شيلي الشاعر الانجليزي في صيغة أخرى فقد قال في بعض قصائده (إن القوة كالوباء الذي يتفشى فيصيب كل ما يقربه والخنوع لها عدو للذكاء والفضيلة والحرية والحق ويحيل الناس أرقاء ويجعل أجسامهم آلات مسيرة) ولكن كيف يستطيع الانسان أن يكون في غنى عن القوة أو أن يقيدها ؟؟

فالثورة الفرنسية التي كانت ثورة على القوة وأعطت في أول الأمر كل مدينة أو اقليم حق انتخاب حكومة كبيرة ، حتى ضعفت سلطة الوزراء فضعفت الدولة بسبب ذلك ، ما لبثت أن صارت في عهد نابليون أو عهد السلامة مركزية شبه توتاليتارية . وبالرغم من أن جان جاك روسو في كتابه « العقد الاجتماعي » كان يشير الحريات الفردية فإن به نزعة توتاليتارية تظهر في أمور كثيرة منها تقديس الدولة والقول بانعدام حق كل ارادة في الارادة العامة . ومنها إباحة حكم الحاكم الدكتاتوري الفرد الذي ينوب عن الديموقراطية في بعض الأحايين . ومنها القول بنفي أو قهر من له ارادة لم تنعدم في الارادة العامة . ولما كانت الارادة العامة كالديموقراطية أمراً تقريبياً فهي إرادة الكثرة أو ما يسمى الكثرة ، وإن كانت كثرة ظاهرية . وبعض اليعقوبيين الديموقراطيين قالوا — عندما كانوا قلة — إنهم كثرة لأنهم يمثلون مرافق الشعب الحقيقية وإرادة أجيال الشعب في العصور الطويلة المقبلة عندما ينتظم كل آحاده أن يعدم إرادته في الارادة العامة . فالعالم لا تزال تتنازع فيه القوة الطوائف والأحزاب المختلفة وكلٌّ يريد أن يسود رأيه وأن يقهر رأي غيره . ومن الطريف أن نابليون بونابرت وقف يوماً على قبر جان جاك روسو وقال — وقد كان في صغره يردد آراءه — لقد كان من الصالح العام لو أن هذا الرجل لم يولد . فقال له جيراردين ان آراءه أفسحت لك الطريق بسبب أثرها في الثورة الفرنسية فقال نابليون : ربما كان من الصالح العام لو أننا كلينا لم نولد .

(١١) ومما يُخيَّل لنا أن الكلام المواتي الكثير عن المحدث أو الخطيب دليل على غزارة مادته من اللغة والرأي وهو كثيراً ما يكون دليلاً على أن مادته محدودة فيستطيع اختيار ما يختار من الكلام من غير مشقة . فإذا غزرت مادة الإنسان من لغة أو علم أو رأي قد يطول تردده قبل الكلام — ولعلَّ في هذا بعض العزاء لذوي العيّ إذ غاية ما تسل إليه غزارة المادة أن يكون المرء أشبه بالعييّ في تردده قبل الكلام من وفرة المادة كما قال الشاعر :

تكاثرت الظباء على خراش   فلا يدري خراش ما يصيد

وكثرة الكلام مع قلة افادته أمر معروف . ولعلَّ أفكه مثل لهذه الثرثرة وإن كانت ثرثرة كيّسة من بلاغة الأديب مؤلفها كتاب (محاضرات الكيلة) أو الناموسية

والسرور وهي محاضرات تعظ فيها مسز كودل زوجها وتؤنبه بعد ذهابهما الى الفراش وهي من تأليف دوجلاس جيرولد . وقلة المادة لا تعوق تأثير الكلام الكثير في السامع فإن الكلام يؤثر بترداده كما هو مشاهد في السياسة وفي غيرها من مظاهر الحياة المختلفة . بل لعل قلة المادة تدعو الى أن يفضله كثير من الناس لقلة العنت في فهم مادته القليلة .

(١٢) قد يتحدث الرجل صاحب الفطنة والذكاء فيخالط بعض كلامه شيء من الفكاهة العامة البريئة فيحسبها السامع اقتباساً له وهي ليست اقتباساً وإنما يفعل ذلك اذ يقول في نفسه إن هذا الرجل المفكر لا بد أن يكون وراء كلامه معنى مستتراً غير ظاهر معناه — ومثل هذا الشك غير مقصور على المحدث القصصي أو من كان من أهل التفكير من الناس وإن كان يساء الظن بهم أكثر من غيرهم . فإن السامع إذا صادف كلام القائل صفة يخشى أن يظنها الناس في نفسه عد كلامه تعريضاً به وربما تسرع بالإساءة الى قائلها ومن أجل ذلك يفترض على مؤلفي القصص أن يقولوا إنهم لا يعنون أحداً بأناس قصصهم وإنهم من صنع الخيال . والواقع هو أن صاحب الفن يستمد من الأمور المشاهدة العامة مادة لفنه فيجعلها فناً عاماً ولكن الناس كثيراً ما يحيلون الفن العام الى شخصيات معينة وذلك في قول المفكر أو القصصي أو الشاعر . وأكثر هذه الإحالة ترجع الى العقد النفسية وإحساس الناس يصدق قول فرويد في كتاب (العلل النفسية) إن كل نفس إنسانية تجمع في وعيها الباطن ونزعاته وصفاته الكامنة كل ما هو إنساني في جميع النفوس بل كل ما هو حيواني في الحيوانات كلها فيجعلون كل ما في الوعي حقيقة كائنة في الحياة متى أرادوا وانتقالهم بالفن أو الفكر من التعميم الى التخصيص يكون بالرغم من ميل الناس إذا كان لهم أرب أو شهوة الى التعميم في أحكامهم المختلفة . كتعميمهم في الحكم على الأمم أو الأحزاب أو الطوائف الكبيرة .

(١٣) في أثناء طلب أمر من الأمور ومحاولة نيله والسعي والعمل له يفكر المرء في محاسنه وأطايبه ومسراته وفضائله فإذا ناله بدأ يفكر في أوجه النقص فيه وفيما قد يكون فيه من المساوىء والعيوب وإنما ركبت النفس على هذا الوجه وجبلت على هذا الطبع كي تستأنف مطالب الحياة وكي تطمع في المزيد من محاسن الأمور فتعمل وتكد وربما بحثت

الأمم التي نالته كي تستطيع تحقيق هذه السنة الحيوية التي هي قوام الحياة .

(١٤) اذا هاج البحر ورأى أهل سفينة ان تخفف أحمالها وأثقالها كي تنجو وينجون من الغرق بأن يقذفوا بعض أحمالها في البحر ، ربما حاول كل منهم ان يخفي متاعه ويحفظ غيره كي يلقي متاعه في البحر وهذا مثل الذين يفضلون نفع أنفسهم على نفع الجماعة ومجاميعها فتضيع أنفسهم وتضيع الجماعة التي هم منها وهذا التواكل يكثر عادة في الأمم التي فقد أفرادها الثقة بعدل حكومات بائدة وحكومة كائنة .

(١٥) اذا أراد الانسان ان يتسلق ويطول فلا بد ان يتسلق كما تتسلق القردة على قدميه ورجليه . والطمع في مناصب الجاه والسلطة قد يقتضي من المرء ما هو شبيه بالزحف على اليدين والرجلين ويعني التقرب بوسائل التملق والتضرع ومداراة من يرجى نفعه على شهوات غضبه أو حسده أو محاباته الى آخر هذه الأمور فقد شبهها بالزحف على القدمين واليدين أو بالتسلق بهما كما تفعل القرود .

(١٦) السبب في خيبة كثير من الأزواج ان نساءهم بدل أن يتخذن من الزواج أقفاصاً لأزواجهن كأقفاص العصافير المدللة البيتية التي تزين أقفاصها كي تأنس اليها ، يتخذن من الزواج ما يراه الرجال أشبه بالفخاخ والشباك التي تصاد بها الحيوانات .

(١٧) كثيراً ما يذكر أهل التعاسة حكم الدهر ومشيئة القدر الغالبة النافذة . أما السعداء فقلما يذكرون هذه الأمور ولا سيما الذين يرتقون إلى الجاه والثروة والسعادة لن تزول عنهم إذ ان هؤلاء ينسون حتى أثر الأقدار في توزيع الصحة والمرض والذكاء والغباوة والأحوال المساعدة للنجاح . وهنا يذكرنا قصة رجل أصاب غنيمة من مال كثير احتلبه من غير تعب ، فكان اذا طلب منه انسان صدقة يقف ويلقي عليه محاضرة في فوائد الاجتهاد والجد في العمل ويقول له لو كنت اجتهدت لصرت مثلي .

(١٨) كثيراً ما يعلل المرء نفسه بأن العصور المقبلة ستقبل على ما انصرف عنه أهل عصره وستشغل بما كان أهل دهره عنه في شغل ، فينصفون عمله أو قوله كما أراد ويتمنى أن أهل العصور المقبلة تستنجد لهم فيها أقوال وأمور تجذب في شغل وهذا الوهم هو مما يزيد اقبال الناس على العمل والتفكير والتضحية وان كان قلما يتحقق ، ولكنه من سنة الحياة التي تزيد ثمرة أعمال الناس حتى بالوهم .

(للبحث بقية) ع . ش